

## جرادة مالحة

كان فيما مضى من غابر الزمان، قرية نائية يختفي الطريق بمجرد أن يسلكه الغرباء القادمون إليها، فلا يلجها ولا يبرحها أحد. وذلك بسبب تعويذة سحرية لساحرة شمطاء تدعى "عاقسة"، تسكن القرية وتتجبرت على سكانها. كان سكان القرية يخافون من سحرها الذي تستعين فيه بعنة مرده الجان.

في نفس القرية، تسكن امرأة طيبة تدعى "الصالحة" وقد آتاها الله بستانا تفجرت خلاله العيون وتدفقت الخيرات وأشرقت الأزهار والثمار. كان بستان الصالحة مصدر قوت لجميع سكان القرية إلا "عاقسة"، التي كانت تكره "الصالحة" ويزداد غيضا عندما تلمس حب الناس لها. لذلك لم تكن تذخر جهدا في الإساءة الى الصالحة وتسخر في ذلك خدامها من الجان بأن يحرقوا بيت "الصالحة" ويحولوا بستانها إلى رماد؛ لكن كل محاولاتهم كانت محكومة باءت بالفشل لان عناية الله كانت تحرسها وترد عنها كيد عاقسة واعوانها من الجن.

كانت الصالحة حبلى في شهرها السابع عندما توفي زوجها دون ان تظهر عليه اعراض الوهن. كان الجميع يجزمون أن وفاة الزوج ورائها كيد عاقسة، لكن لا أحد كان يجرؤ على قول الحقيقة خوفا من الساحرة. ازداد قلب عاقسة حقدا بعد أن من الله على الصالحة بتوأم ذكر كان جمالهما من جمال البدر خاصة أنها عقيم لا تستطيع للإنجاب سبيلا؛ فقررت أن تسرق الطفلين وتتوارى بعيدا عن القرية لتحرق قلب أمهما. عندما توسط الليل وسيطر الظلام كانت عاقسة تسلك طريقها خارج القرية بعد أن تسللت إلى بيت الصالحة خلسة وسرقت الرضيعين وبرحيلها اصبح الطريق الى القرية سالكا بعدما كانت الجن تحرسه وتغير معالمه باستمرار لتضليل القادمين ومنع المقيمين من المغادرة.

في الصباح، اكتشفت "الصالحة" اختفاء ولديها فصاحت صيحة اجتمع لها كل سكان القرية واتحدوا لمواجهة عاقسة. كانوا يمنون أنفسهم بإنهاء سيطرتها وتحطيم جبروتها. لذلك، حملوا معاولهم وعصيهم وداهموا بيت الساحرة العجوز الذين كان فارغا. لقد هربت بعد ان نجحت في اختطاف الرضيعين. أحست الصالحة بالحسرة والالام يمزقان وجدانها، فتوجهت إلى الله تشكو ظلم الساحرة وتسأله أن يعيد إليها فلذتنا كبديها.

بعد مسيرة ثلاثة أيام، وصلت عاقسة إلى قبيلة الصيادين حيث يعيش السكان على صيد الاسماك من النهر الذي يجري بمحاذاة القرية، واختارت مكانا بين الأشجار حيث دقت خيمتها تريد الإقامة والاستقرار. في اليوم الثالث لإقامة

الساحرة بالقرية، انخفض منسوب المياه بالنهر بشكل حاد، وندرت الأسماك لدرجة ان الصيادين لم يتمكنوا من الحصول الا على اسماك قليلة في اليوم تصبح غير صالحة للأكل بمجرد مغادرتها النهر وتنبعث منها رائحة كريهة.

اجتمع الصيادون يناقشون البلاء الذي حل بهم وانتهى بهم الامر في خيمة حكيم القرية الذي بادر بالسؤال:

"منذ متى حدث ما حدث؟"

"منذ ثلاثة أيام سيدي " صاح أحدهم للحظة.

ثم أضاف آخر: "حلت بالقرية امرأة عجوز منذ ثلاثة أيام لا تبارح خيمتها، ملامح محياها توحى بالقسوة وبمجرد أن دقت خيمتها قرب منزلي أصاب النهر ما أصابه".

"لا بد أن العجوز هي من جلب النحس إلى قريتنا، لن نسمح لها بالمكوث ليلة أخرى؛ أعطوها زادا ثم أخرجوها من القرية" صرخ كبير الأعيان غاضبا.

اجتمع الصيادون حول خيمة الساحرة واقتادوها خارج القرية بعد أن مكنوها من زاد يكفيها؛ ومن جديد، سارت الساحرة إلى أن وصلت إلى قبيلة الحطابين في وسط الغابة بعد يوم كامل من السير. هناك، دقت خيمتها قرب منزل أحد الحطابين الذي رحب بقدمها وعرض عليها المساعدة في تثبيت الخيمة لكنها صدته بعبارات صامتة انعكست على اديم وجهها الذي افلحت سنوات القسوة التي عاشتها في نقش اخايد على صدره. القبيلة التي تعتمد على خيرات الغابة من حطب وحشائش تجعلها علفا للماشية. كما هو الحال في قرية الصيادين، شهد اليوم الثالث تحول الحشائش اليانعة إلى ميتة بمجرد وصولها إلى القبيلة ونفوق صغار الماشية وندرة الألبان والأجبان نتيجة شح العلف.

تطير الحطابون من الوافدة الجديدة واعتبروا مقامها بينهم مصدر نحس أصاب القبيلة ومن فيها؛ وبذلك قدموا إليها زادا، ثم ساقوها خارج القرية التي عادت الحياة إلى حشائشها بمجرد رحيل عاقسة.

أسرعت عاقسة في الابتعاد عن قبيلة الحطابين لتجد نفسها بعد مسيرة يوم واحد على أبواب قبيلة كبيرة قيل لها إنها قبيلة القاضي "بومفتاح". كان للقاضي صيت ذاع في أرجاء الأرض؛ وقد عرف بعدله وحكمته واتساع بصيرته وذكاءه كما انه كان يستعين بمجموعة من الحكماء لدفع الظلم وإحلال العدل ومعاقبة السحرة الأشرار.

بعد انصرام ثلاثة أيام على قدوم عاقسة، اشتدت الخصومات بالقبيلة وصار  
المتنازعون يقفون في طوابير أمام بيت القاضي بومفتاح بعد أن كان الوئام  
والتعاقد يملأ أرجاء القرية. استقبل القاضي كبير التجار وكبير بائعي الخضر  
كل يعرض شكواه:

قال كبير التجار:

"منذ ثلاثة أيام، جمعنا الأموال من الحطابين والجزارين وأعطيناها لبائعي  
الخضر إلا أنهم لم يقوموا بتسليم الخضر والفواكه للقافلة التي ستتحرك في  
الصباح الباكر"

عندها أجاب كبير منتجي الخضر:

"لقد صدق كبير التجار وقد قمنا بتجميع الخضر في المكان الذي اتفقنا  
عليه سالفًا إلا أنها اختفت دون أن نجد لذلك تفسيرًا".

قطب القاضي بومفتاح جبينه ثم أمرهم بالعودة في الغد لإصدار حكمه.

بعد ما خرج المتخاصمان جاء دور كبير الجزارين وكبير الفلاحين:

"سيدي القاضي، إن الفلاح يحتجز ماشيتي ويهددني بذبحها واكل لحمها  
ويرفض إعادتها إلي"

قال كبير الجزارين.

"سيدي، لقد هجمت ماشيته على حقول الفلاحين فأفسدت الزرع وأكلت  
الغلة، فمن يعوضنا عن خسائرنا؟"

أجاب كبير الفلاحين.

كما فعل مع الخصمين الأولين، وجههما القاضي إلى العودة في الغد؛ ثم  
التفت إلى مساعده قائلاً:

"ما سر هذا الزلزال الذي قلب كيان القرية برمتها؟"

"منذ ثلاثة أيام، حلت عجوز تحمل رضيعين، واستقرت جانب الوادي لا  
تكلم أحداً ولا يكلمها أحد واحسب أنها جلبت النحس إلى القرية"

أجاب المساعد.

كان القاضي لا يظلم أحداً، لذلك أمر بإحضار العجوز معززة مكرمة كي  
يعلم ما وراءها.

ما إن مثلت أمامه حتى لمس القاضي قسوة تخفيها العجوز رغم بكاءها، وهي تتحدث عن الوباء الذي اجتاح قبيلتها وفتك بعائلتها، فاضطرت أن تخرج برضيعيها تبحث عن مكان تستقر فيه، وأنها وجدت الملاذ الآمن في كنف قبيلة القاضي بومفتاح المعروف بكرمه وحسن خلقه.

نظر القاضي الى الرضيعين وقد تلاً نور وجهيهما بينما كان وجه الساحرة الشمطاء قائماً تملأ سماءه التجاعيد فقال:

"اسمعي ايها العجوز، لا أستطيع ان اصدق ان الطفلين هما من صلبك فهما لا يشبهانك كما أنهما في سن الرضاعة وانت عجوز لا يدر صدرك حليباً"  
"أنتشك في قدرة الله؟ إنهما عطية الله وقد سبقني في ذلك إبراهيم وزكرياء عليهما السلام" أجابت الساحرة عاقسة.

أمر القاضي باحتجازها إلى الغد ثم استدعى طائر الزرزور وأمره بان يسافر إلى البلاد البعيدة ويعود بخبر المرأة قبل حلول الفجر.

طار الزرزور وعاد قبل الفجر حاملاً أخبار الساحرة "عاقسة" والأم "الصالحة" وما تلا ذلك من أحداث.

عندما حل الصباح، كان الصفاء قد عاد إلى القبيلة وتصالح المتخاصمون وعادت الأمور إلى سابق عهدها. استدعى القاضي أصدقاءه الحكماء للنظر في كيفية معاقبة الساحرة عاقسة؛ التي بحضورهم تغير لون وجهها وارتفع صوتها وسعت إلى سحر الجميع مستعملة عصاها السحرية؛ إلا أن حكماء بومفتاح كانوا لها بالمرصاد وكتبها تلامسهم. أصدر القاضي حكمه بتخييرها بين أن يتم تحويلها إلى ذبابة أو ضفدعة أو جرادة. اختارت أن تكون جرادة وفي نفسها ما تخفيه. ثم عادت البسمة إلى بيت "الصالحة" بعد أن أعاد القاضي بومفتاح الرضيعين إلى حضن أمهما. أما الجرادة "عاقسة" فقد ذهبت إلى أغوار الصحراء وجلبت سرباً من الجراد لمهاجمة بستان "الصالحة"؛ لكن عناية الله حولت مذاق نباتات البستان إلى الملوحة اللاذعة مما جعل الجراد يتساقط في البستان ليصبح صيداً لأهل القبيلة. الصغار في القبيلة ملأ الجراد بطونهم وشبعوا ثم اقتسموا الجراد الباقي بينهم؛ وبعد القسمة وجدوا جرادة وحيدة قرروا أن يجروا القرعة ليروا من يظفر بها. كانت الجرادة هي "عاقسة" وكان طعمها شديد الملوحة وكلما وضعها طفل في فمه ألقاها أرضاً فتركوها جانباً إلى أن هبت ريح قوية حملتها بعيداً عن القرية. ثم بدأ الأطفال يرقصون ويغنون:

"أجرادة مالحة، فين كنتي سارحة؟ في جنان الصالحة، واش كليتي واش شربتني؟ غير التفاح والنفاح غير جمع يديك بالقاضي يا بومفتاح"